الفصل السادس والخمسون بعد المئة

أولية الشعر الجاهلي

لا نملك نصوصاً جاهلية مدونة عن مبدأ الشعر عند العرب،وعن كيفية ظهوره وتطوره الى بلوغه المرحلة التي وصلها عند ظهور الاسلام . ولم يعثر العلماء على شعر مدون بقلم جاهلي ، ليكون لنا نبراساً يعيننا في تكوين صورة عن ذلك الشعر وعن هيكله ومادته التي تكوّن منها . وكل ما نعرفه عن هذا الشعر مستمد من موارد اسلامية،أخذت علمها به من أفواه الرواة ، فلما جاء التدوين دوّن ما وعته الذاكرة مما أخذته عن المتقدمين بالرواية ، فتثبت واستقر ، بعد أن كان المروي عرضة للتغيير والتحريف كلما تنقل من لسان الى لسان ، ومن وقت الى وقت .

وقد تعرض (الجاحظ) لموضوع قدم الشعر العربي وتأريخه ، فقال: « وأما الشعر فحديث الميلاد ، صغير السن ، أول من نهج سبيله ، وسهل الطريق اليه، امرؤ القيس بن حجر ، ومهلهل بن ربيعة ... فإذا استظهرنا الشعر ، وجدنا له الى أن جاء الله بالإسلام – خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام »[1] . وذهب (عمر بن شبّة) الى أن « للشعر والشعراء أول لا يوقف عليه ، وقد اختلف في ذلك العلماء ، وادعت القبائل كل قبيلة لشاعرها أنه الأول.. فادعت اليمانية لامرىء القيس ، وبنو أسد لعبيد بن الأبرص ، وتغلب لمهلهل ، وبكر لعمرو بن قميئة والمرقش الأكبر ، وإياد لأبي دُؤاد ... وزعم بعضهم أن

---

١ الحيوان (١/٧٤) .

الأفوه الأودي أقدم من هؤلاء ، وانه أول من قصد القصيد ، قال : وهؤلاء النفر المدعى لهم التقدم في الشعر متقاربون ، لعل أقدمهم لا يسبق الهجرة بمائة سنة أو نحوها »[1] . وذهب (الأصمعي) الى ان بين أول شاعر معروف ، قال كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً من الشعر ، وهو (مهلهل) ، وبين الاسلام أربعمائة سنة . « وكان امرؤ القيس بعد هؤلاء بكثير »[2] .

وقال (الأصمعي) في رواية تنسب اليه ، « ان أول من يروى له كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً من الشعر مهلهل ، ثم ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم ، ثم ضمرة ، رجل من بني كنانة ، والأضبط بن قريع . قال : وكان بين هؤلاء وبين الاسلام أربعمائة سنة ، وكان امرؤ القيس بعد هؤلاء بكثير »[3] . « وزعم أبو عمرو بن العلاء : ان الشعر فتح بامرىء القيس وختم بذي الرمة »[4] .

وذكر انه « لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات التي يقولها الرجل في حاجته ، وانما قصدت القصائد ، وطوّل الشعر على عهد عبد المطلب ، أو هاشم ابن عبد مناف »[5] .

وذكر (المرزباني) ، أن (بكر بن وائل) ، تزعم أن (عمر الضائع) « أول من قال الشعر وقصد القصيد ، وكان امرؤ القيس بن حجر استصحبه لما شخص الى قيصر يستمده على بني أسد ، فمات في سفره ذلك فسمته بكر عمراً الضائع »[6] . فعمرو الضائع ، هو أول من قال الشعر وقصد القصيد على رأي بكر بن وائل على رواية (المرزباني) .

وقد أورد (ابن اسحاق) شعراً نسبه الى (عمرو بن الحارث بن مضاض) الجرهمي ، زعم أنه قاله لما خرج بقومه من مكة الى اليمن ، أوله :

وقائلة والدمع سكب مبادر ... وقد شرقت بالدمع منها المحاجر
كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر
فقلت لها والقلب مني كأنما ... يلجلجه بين الجناحين طائر

---

١ المزهر (٢/٤٧٧) ، ابن سلام ، طبقات (٣) ، المرزباني ، الموشح (٧٤) .
٢ المزهر (٢/٤٧٧) .
٣ المزهر (٢/٤٧٧) .
٤ البيان والتبيين (١١٥) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) .
٥ المزهر (٢/٤٧٧) .
٦ معجم (٤) .

الى آخـــر القصيدة التي يتوجع فيها لمفارقته مع قومه مكة ، ونسب لـــه أبياتاً أخرى هي :

يا أيها الناس سيروا ان قصركم أن تصبحوا ذات يوم لا تسيرونا
حثوا المطايا وأرخوا من أزمتها قبل الممات وقضوا مـــا تقضونا
كنّا أناساً كما كنتم فغيرنـــا دهر فأنتم كما كنّـــا تكونونا

وقد ذكر (ابن هشام) ان « هذا ما صح له منها » وان بعض أهل العلم بالشعر يقول إن هذه الأبيات أول شعر قيل في العرب[1] .

ودون (السهيلي) صاحب (الروض الأنف) شعراً أخذه من كتاب (أبـي بحر سفيان بن العاصي) زعم أنه وجد في بئر باليمامة ، وهي بئر طسم وجديس ، في قرية يقال لها (معنق) بينها وبين الحجر ميل[2] ، وكان مكتوباً على ثلاثـــة أحجار ، كتبها قوم من بقايا عاد ، غزاهم تبع ، كتب على الحجر الأول :

يا أيها الملك الذي بالملك ساعده زمانـــه
ما أنت أول من علا وعلا شؤون الناس شانه
أقصر عليك مراقباً فالدهر مخـــذول أمانه
كم من أشم معصب بالتاج مرهوب مكانه
قد كان ساعده الزما ن وكان ذا خفضٍ جنانه
تجري الجداول حوله للجنـــد مترعة جفانه
وقد فاجأته منيـــة لم ينجه منها اكتنانه
وتفرقـــت أجنـــاده عنـه وناح بـه قيانه
والدهر من يعلق به يطحنـه مفترشاً جرانه
والناس شتى في الهوى كالمرء مختلف بنانـــه
والصدق أفضل شيمة والمـــرء يقتلـه لسانـه
والصمت أسعد للفتى ولقـــد يشرفه بيانـه

---

١ ابن هشام ، سيرة (١/٨٢ وما بعدها) ، (حاشية على الروض الانف) .
٢ الروض الانف (١/٨٢ وما بعدها) .

وكتب على الحجر الثاني :

كـــل عيش تعله[1] ليس للدهـر خله
يوم بؤس ونعمى واجـــتماع وقلـــه
حبنا العيش والتكا ثر جهـل وضلـه
بينما المـــرء ناعم في قصور مظلـه
في ظـــلال ونعمة ساحباً ذيل حله
لا يرى الشمس ملغضا رة إذ زال زله
لم يقلهـــا وبدلت عزة المـــرء ذله
آفـة العيش والنعـ ـيم كرور الأهله
وصل يـــوم بليلة واعـتراض بعلـــه
والمنايـــا جـــوائم كالقصور المدلـــه
بالذي تكـره النفـ ـوس عليها مطله

ووجد في الحجر الثالث مكتوباً :

يا أيها الناس سيروا ان قصركم أن تصبحوا ذات يوم لا تسيرونا
حثوا المطيّ وأرخوا من أزمتها قبل الممات وقضوا ما تقضونا
كنـا أناساً كـما كنتم فغيرنا دهر فأنتم كما كنّا تكونونا[1]

وقد أضاف (الأزرقي) زيادات على هذه الأبيات الأخيرة .

والأبيات التي زعم أنها وجدت مدوّنة على الحجر الثالث ، هي نفس الأبيات التي نسبها (ابن اسحاق) الى (عمرو بن الحارث بن مضاض) الجرهمي كما رأيت . ويظهر أن واضع هذه الأبيات قد استعان بالأبيات التي وجدت في سيرة (ابن هشام) ، أو أنه أخذها من سيرة (ابن اسحاق) . ويلاحظ أنهـا في الحث على الزهد والترغيب في الآخرة . ولو لم يكن هذا الشعر من النوع المصنوع، لكان من أقدم ما وصل الينا من الشعر الجاهلي ولا شك .

و « العلماء من العرب الذين قالوا بمدة مائة وخمسين سنة تقريباً للشعر الجاهلي،

---

١ الروض الانف (١/٨٢ وما بعدها) .

لم يبعدوا عن الصواب إذا فرضنا أنهم إنما أرادوا بذلك ما وصل الينا من الأشعار القديمة »[1] ، بمعنى أن أقدم ما وصل الى علمنا من ذلك الشعر بصورة لا يرتاب بصحتها ، لا يمكن أن يرتقي عهده أكثر من قرن أو قرن ونصف عن الهجرة على أكثر تقدير ، وأن أقدم اسم شاعر جاهلي وصل الى سمعنا لا يرتقي عهده عن هذا التقدير . أما إذا كان قصدهم أن نظم القصيد كان قد بدأ في هذا الوقت ، وأن الشعر بالمعنى الاصطلاحي المفهوم منه لم يظهر عند العرب ، إلا قبل قرن أو قرنين عن الإسلام ، فذلك خطل في الرأي ، وفساد في الحكم . فالشعر أقدم من هذا العهد بكثير ، وقد أشار المؤرخ (سوزيموس) « Zosimus » الى وجود الشعر عند العرب ، وهو من رجال القرن الخامس للميلاد ، الى تغني العرب بأشعارهم ، وترنيمهم في غزواتهم بها[2] ، وفي إشارته الى الشعر عند العرب دلالة على قدم وجوده عندهم ، واشتهاره شهرة بلغت مسامع الأعاجم ، فذكره في تأريخه . وفي سيرة القديس (نيلوس) « Nilus » المتوفى حوالى السنة (٤٣٠) بعد الميلاد ، أن أعراب طور سيناء كانوا يغنون أغاني وهم يستقون من البئر . وهي أشعار ترنم بإيقاع ، تشبه أناشيد العبرانيين عند استقائهم الماء من الآبار . « حينئذ ترنم اسرائيل بهذا النشيد : اصعدي أيتها البئر أجيبوا لها ، بئر حفرها رؤساء ، حفرها شرفاء الشعب بصولجان بعصيّهم »[3] ، والأشعار المروية في كتب التواريخ والأدب عن حفر آبار مكة وغيرها من هذا القبيل ، فقد روي أن (عبد المطلب) لما حفر بئر (زمزم) ، قالت (خالدة بنت هاشم) :

نحن وهبنا لعدي سجله في تربة ذات عذاة سهله
تروي الحجيج زعلة فزعله

وأن (عبد شمس) قال :

حفرت خمّا وحفرت رما حتى أرى المجد لنا قد تما

---

١ كارلو نالينو ، تأريخ الاداب العربية (ص ٦٨ وما بعدها) ، (الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٠ م ، دار المعارف بمصر) .

٢ Die Araber, II, S. 330.

٣ العدد ، الاصحاح ٢١ ، الآية ١٧ .

وان (سبيعة) بنت (عبد شمس) قالت في الطوى :

إن الطوى إذا شربتم ماءها صوب الغمام عذوبة وصفاء

وان (الحويرث بن أسد) ، قال في (شفية) :

ماء شفية كماء المزن وليس ماؤها بطرق أجن

وان (أميمة بنت عميلة بن السباق بن عبد الدار) قالت في حفر بئر (أم أحراد) :

نحن حفرنا البحر أم أحراد ليست كبئر النذر والجماد

فأجابتها (صفية بنت عبد المطلب) :

نحن حفرنا بئر تروي الحجيج الأكبر
من مقبل ومدبر وأم أحراد بشر
فيها الجراد والذر وقئر لا يذكر

ولما حفر بنو جمح (السنبلة) ، وهي بئر (خلف بن وهب) الجمحي ، قال قائلهم :

نحن حفرنا للحجيج سنبله صوب سحاب ذو الجلال أنزله

وحفر بنو سهم الغمر ، وهي بئر العاصي بن وائل ، قال ابن الربعي أو غيره :

نحن حفرنا الغمر للحجيج تثج ماء أيما ثجيج

وحفرت بنو عدي (الحفير) فقال شاعرهم :

نحن حفرنا بئرنا الحفيرا بحراً يجيش ماؤه غزيرا[1]

وورد ان (قصياً) لما احتفر (العجول) ، قال شاعرهم :

نروي على العجول ثم ننطلق إن قصياً قد وفى وقد صدق

---

١ البلاذري ، فتوح البلدان (٦٠ وما بعدها) ، (ذكر حفائر مكة) ، الروض الانف (١/١٠١ وما بعدها) . ويرد الشعر بروايات مختلفة بعض الاختلاف .

وان قصياً لما احتفر (سجلة) ، قال :

أنا قصيّ وحفرت سجلة تروي الحجيج زغلة فزغلة

وقيل بل حفرها (هاشم) ، ووهبها (أسد بن هاشم) لعدي بن نوفل ، فقالت : خلدة بنت هاشم :

نحن وهبنا لعدي سجلة تروي الحجيج زغلة فزغلة

ونجد في كتب السير شعراً قيل في حفر بئر زمزم[1] ، وفي آبار أخرى ، مما يدل على ان العرب كانوا قبل هذا العهد ، اذا حفروا بئراً ، قالوا شعراً فيها، وهو شعر يمكن أن نسميه شعر الآبار ، وهو يعود ولا شك الى عرف قديم ، قد يتقدم على الميلاد بكثير ، وهو يجب أن يكون من أقدم ما قيل من الشعر ، لما للبئر من أهمية في حياة العرب .

ولم يقتصر التغني بالشعر على حفر الآبار وحدها ، وإنما تغني به عند بنائهم بناء أو حفرهم خندقاً ، أو اقامتهم سوراً ، أو قيامهم بزرع أو حصاد ، وفي أعمال أخرى يناط القيام بها الى جماعة في الغالب ، وكذلك في الغارات وفي الحروب. ولما شرع المسلمون يبنون مسجد الرسول بالمدينة ، قال قائل منهم :

لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك منّا العمل المضلل

فارتجز المسلمون وهم يبنون ، يقولون :

لا عيش إلا عيش الآخرة اللهم فارحم الأنصار والمهاجرة

وقال (ابن هشام) : هذا كلام وليس برجز[2] ، وسبب ذلك كون قائله هو الرسول .

وقيل إنه قال :

اللهم لا عيشَ إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

---

١ ابن هشام ، سيرة (١/٩٧) ، (حاشية على الروض) ، الروض الانف (١/٩٧).
٢ ابن هشام ، سيرة (٢/١٢) ، (حاشية على الروض) .

وجعل يقول :

هذا الحمال لا حمال خيبر هذا أبرّ ، ربنا ، وأطهر[1]

ويروي أهل الأخبار أن (المهلهل) ، كان يتغنى في شعره حين قال :

طفلةٌ ما ابنةُ المحلل بيضا ءُ لعوبٌ لذيذة في العناق[2]

ورووا أن من الشعراء الجاهليين من كان يتغنى بشعره ، وان حسّان بن ثابت أشار الى التغني بالشعر بقوله :

تَغَنَّ بالشعر إما كنتَ قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمارُ[3]

وقد قصد بذلك ، ترنيم الشعر وإنشاده على نغم مؤثر ، وهو الغناء . وما زال الشعراء ، يترنمون بشعرهم ، وينشدونه بأسلوب خاص يميزه عن أسلوب إلقاء النثر .

ونجد في أخبار غزوة أحد ، أن هنداً بنت عتبة ، زوجة أبي سفيان،ونسوة من قريش كنّ يضربن على الدفوف ويتغنين بالشعر ، حيث يقولون :

نحن بناتُ طارقْ إن تُقْبلوا نعانق
ونبسط النمارق أو تدبروا نفارق
فراق غير وامق

وتقول :

وَيهاً بني عبد الدار وَيهاً حماة الأدبار
ضرباً بكلّ بتار[4]

ولا بد وأن تكون في الأهازيج وفي أشعار الحج ، أنغام يرنم على وقعها الشعر ،

---

١ ابن سعد طبقات (١/٢٤٠) ، (صادر) .
٢ الاغاني (٥/٥١) .
٣ العمدة (٢/٢٤١) .
٤ الطبري (٢/٥١٠ ، ٥١٢) .

الذي هو شعر الغناء. فإننا نجد في النتف الباقية من الجمل التي كان يقولها الحجاج أثناء حجهم ، آثار شعر قد كان مقروناً بالغناء .

ونظراً لوجود تماس مباشر بين هذا الشعر وبين الحياة العامة، فإن في استطاعتنا القول ، انه قد يكون من أقدم أنواع الشعر عند العرب ، وهو شعر لم ينبع من ألسنة الشعراء المحترفين ، وانما خرج على كل لسان ، وساهم فيه كل شخص : رجل أو امرأة ، مثقف أو جاهل ، حكيم أو سوقي . وهو بعد نابع من صميم الحياة ، ومن باطن القلب ، للترفيه عن النفس ، ولتخفيف التعب ، ولا زال الناس يتغنون عند وقوع مثل هذه الأمور لهم ، وهو غناء لم يحظ ويا للأسف بالرعاية والعناية ، لذلك لا نجد له ذكراً في الكتب إلا بالمناسبات .

ويرى العلماء المشتغلون بموضوع الشعر من الغربيين ، ان بين الشعر والسحر صلة كبيرة ، بل رأى بعض منهم ان الغرض الذي قصد اليه من الشعر في الأصل هو السحر ، ودليل ذلك ان الغناء عند الشعوب البدائية ، ليس متسقاً مع نغم العمل وايقاع اليد العاملة ، فنجد الغناء عند البناء أو الجر أو الحفر ، أو الزرع لا يتسق مع نوع حركة العمل ، وانما كان يسلي العمال ويسعفهم بقوى سحرية، وهو الغرض من جميع فن القول عند البدائيين، أي تشجيع العمل بطريق سحري[1].

وقد ذهب (بروكلمن) و (كولدتزيهر) الى ان هذا الأثر السحري لا يظهر في الشعر العربي القديم إلا في شعر الهجاء ، « فمن قبل أن ينحدر الهجاء الى شعر السخرية والاستهزاء ، كان في يد الشاعر سحراً يقصد به تعطيل قوى الخصم بتأثير سحري . ومن ثم كان الشاعر ، اذا تهيأ لإطلاق مثل ذلك اللعن ، يلبس زياً خاصاً شبيهاً بزي الكاهن . ومن هنا أيضاً تسميته بالشاعر ، أي العالم ، لا بمعنى انه كان عالماً بخصائص فن أو صناعة معينة ، بل بمعنى انه كان شاعراً بقوة شعره السحرية ، كما ان قصيدته كانت هي القالب المادي لذلك الشعر »[2] .

وكانت غاية الأغاني القصيرة ، التي يرددها البدائي في المواقف الكبرى للحياة

---

١ بروكلمن (١/٤٥) ،
K. Th. Preuss, Die Geistige Kultur der Naturvölker, Leipzig — Berlin, 1914, S. 85.

٢ بروكلمن (١/٤٦) ، I. Goldziher, Abhand. Zur Arab. Philologie, I, I.

الانسانية ، أن تحدث آثاراً سحرية ، وكذلك كانت غاية الرثاء الأصلية أيضاً هي السحر ، « فقد كان الغرض من المرثية أن تطفىء غضب المقتول وتنهاه أن يرجع الى الحياة ، فيلحق الأضرار بالأحياء الباقين ، ولكن هذا المعنى تلاشى تقريباً في الجزيرة العربية أمام الشعور الانساني بالحزن الممض . على ان إظهار الحزن لم يكن يناسب رجال القبيلة كما كان لائقاً بنسائها ، وخاصة بالأخوات ، ومن ثم بقي تعهد الرثاء الفني من مقاصدهن حتى عصر التسجيل التأريخي »[1] .

وقد لعبت الأغاني دوراً كبيراً في الصيد والحرب ، فقد رافقتها منذ أوائل انشغال الإنسان بهما . ولم يكن الصيد متعة وتسلية ورياضة عند العرب حسب ، بل كان لسدّ حاجة وللتغلب على شغف العيش أيضاً ، ونجد في الشعر الجاهلي شعراً جعل الصيد ، نوعاً من الرياضة والتسلية ، واظهار الرجولة في التغلب على الوحش الكاسر ، والحيوان المتوحش ، وأكثر أصحابه من المترفين والمتمكنين ، من أصحاب الخيل السريعة،مثل الملوك وسادات القبائل ، والشعراء الذين يرافقونهم في رحلات صيدهم ، أو يقومون هم أنفسهم برياضة الصيد .

ويلعب الغزو دوراً خطيراً في حياة الجاهليين ، فقد كان الغزو في الواقع نوعاً من أنواع الكفاح في سبيل الحياة، عليه معاشهم ، وبواسطته يحافظون على حياتهم وأموالهم ، وقد أنتج ضرباً من ضروب الشجاعة والمغامرة ، يتجلى في الشعر الحماسي ، الذي يقال قبل القتال وفي أثناء احتدامه . ونكاد لا نقرأ خبر يوم من أيام العرب أو غزو ، أو قتال إلا ونجد للشعر فيه دوراً ومكاناً في هذه الأحداث. يستوي في ذلك شعر الجاهلية والشعر الذي قيل في الأحداث التي وقعت في صدر الإسلام .

ونجد للنسيب ، والغزل مكانة في الشعر الجاهلي ، وقد نجد فيه وصفاً للجمال الحسي لأعضاء الجسد . وقد آخذ العلماء امرأ القيس والأعشى على مجاهرتهما بالفحش وبالزنا في شعرهما . والمجاهرة بالاتصال الجنسي بصورة عارية مكشوفة من الأمور التي لا ترد بكثرة في الشعر الجاهلي[2] .

ولا بد وأن يكون الشعر قد مر في مراحل ، لعل أقدمها مرحلة السجع ،

---

١ بروكلمن (١/٤٧ وما بعدها) .
٢ بروكلمن (١/٤٩ وما بعدها) .

أي النثر المقفى المجرد من الوزن ، الذي تخصص فيه الكهان عند ظهور الاسلام. وهو والد (الرجز) ، أبسط أبواب الشعر ، ومن الرجز نشأ بناء بحور العروض ، التي يظهر أثر الموسيقى على صياغتها على رأي بعض المستشرقين[1] ، وهو أثر يدل على ما كان للغناء من صلة بالشعر . ولعل هذه الصلة هي التي حملت العلماء على القول بأن بحور الشعر نشأت في الأصل من سير الإبل ، من ترنيم الشاعر شعره على ايقاع سير الإبل . غير ان البحث عن هذا الموضوع وعن موضوع كيفية نشوء بحور العروض وصلتها بعضها ببعض لا تزال من الدراسات العويصة المشكلة الشائكة التي لا يمكن الاتفاق عليها ، لعدم وجود أسس ثابتة يرتكز عليها الجدل القائم بين الباحثين في كيفية تطور الشعر الجاهلي[2] . أما ان هذه البحور ، قد نشأت من سير الإبل[3] ، فكلام لا يقوم على علم ، وهو من باب حدس الحداس، فلدى الشعوب الأخرى شعر ، له ترانيم وبحور ، ومع ذلك ، فإنها لم تكن تركب الإبل ، ولا تعرف ايقاع أرجلها عند المشي .

وقد قام المستشرقون بدراسة البحور التي نظم الشعراء الجاهليون بها شعرهم ، فوجدوا أن البحر الطويل يأتي في المرتبة الأولى من البحور ، يليه الكامل، فالوافر ، فالبسيط . أما المتقارب فيوجد عند امرىء القيس ، كما يوجد عنده المنسرح قليلاً . واستعمل (طرفة) الرمل في قصيدة يبلغ طولها (٧٤) بيتاً، ترتيبها الخامس في ديوانه[4] ، كما استعمل السريع في قصيدتين[5] ، واستعمل كل من امرىء القيس وطرفة المديد في قصيدة واحدة[6] ، وأما الخفيف ، فقد وجد في شعر المرقشين، وعبيد بن الأبرص ، وعامر بن الطفيل ، والأعشى ، ولا يوجد الهزج إلا في قطعتين منحولتين ، واحدة لطرفة ، وأخرى لامرىء القيس[7] .

وقد ذهب (غرونباوم) الى أننا نجد تفنناً في شعر شعراء العراق وفي شعر من احتك بالحيرة من شعراء أكثر مما نجده في شعر أي مكان آخر . وذكر أن شعر

---

١ بروكلمن (١/ ٥١ وما بعدها) .
٢ بروكلمن (١/ ٥١ وما بعدها) .
٣ G. Jacob, Studien in Arabische Dichtem, II, S. 106.
٤ بروكلمن (١/ ٥٣) .
٥ رقم ٢ و ٣ من الديوان .
٦ بروكلمن (١/ ٥٣) .
٧ بروكلمن (١/ ٥٣) .

(أبي دؤاد) الإيادي قد جاء على اثني عشر بحراً ، ثم يرى أن المدرسة العراقية قد أكثرت من بحر الرمل ، ولا يستعمل هذا البحر في الشعر القديم إلا أبو دؤاد في ثلاث قصائد ، وطرفة في ثلاث قصائد ، وعدي في سبع قصائد ، والمثقب في قصيدة واحدة ، والأعشى في قصيدتين . واستعمله امرؤ القيس في قصيدة واحدة ، ورأى في ذلك دلالة على تأثر امرىء القيس بأبي دؤاد ، وتأييداً للرواية التي ترى أنه كان راوية لأبي دؤاد[1] .

ويجيء امرؤ القيس وعدي والأعشى بعد أبي دؤاد في توسيع البحور التي نظموا بها ، فقد نظم كل واحد منهم في عشرة أوزان . وتدل الدراسات التي قام بها (فرايتاك) على قلة ورود النظم في بحري الرمل والخفيف بالنسبة الى البحور الأخرى[2] . ويظن ان الشعر الوارد في كتاب : (البخلاء) للجاحظ ، وهو :

واعلمن علماً يقيناً انه ليس يرجى لك من ليس معك

المنسوب لعبيد بن الأبرص[3] ، هو من الموضوعات .

ويرى (غرونباوم) ان من خصائص المدرسة العراقية نزوعها الى بحر الخفيف ، وعند أبي دؤاد الايادي خمس عشرة قصيدة بهذا الوزن ، وعند عدي سبع ، وعند الأعشى خمس ، « ولم يستعمل هذا البحر عند سائر الشعراء المعاصرين إلا على نحو عارض »[4] . فورد عند عمرو بن قميئة ، وعند المرقش الأكبر ، والمرقش الأصغر ، وعامر بن الطفيل ، والحارث بن حلزة اليشكري[5] .

ويظهر مما أورده المفسرون وأهل السير من قول (الوليد بن المغيرة)في الرسول وفي القرآن : « ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله : رجزه وهزجه ، وقريضه ومقبوضه ، ومبسوطه ، فما هو بالشعر »[6] ، « فجعل الرجز والهزج من أوزان

---

١ غرونباوم (٢٦٥ وما بعدها) .

٢ E. Bräunlich, in Der Islam, XXIV, 1937, S. 248. f., Freitag, Darstallung der Arabischen Verskunst, S. 15, J. Jacob, Altarabisches Beduinenleben, S. 190. f., (1897).

٣ الجاحظ ، البخلاء (١٩٠) ، (طه الحاجري) ، غرونباوم (٨٦) .

٤ غرونباوم (٢٦٦) .

٥ غرونباوم (٢٧٩) ، بروكلمن (١/٥٣) .

٦ ابن هشام ، سيرة (١/١٧٣) ، (حاشية على الروض الانف) .

الشعر ، وقرن بها أسماء غير محددة ، ويبدو أن تحديد هذه المعاني كلها عند العرب كان مختلفاً عن اصطلاحات العروضيين ، وإلا فإن القبض في العروض من عيوب الزحاف ، وهو حذف الحرف الخامس الساكن »[1] . وورد في رواية عن (أبي ذر) : « لقد وضعت قوله على اقراء الشعر ، فلا يلتئم على لسان »، وقد اختلفوا في المراد من الإقراء[2] ، وفي هذين الخبرين وأمثالها دلالة على أنه قد كان لأهل الجاهلية قواعد ثابتة بالنسبة للشعر ، وأن الشعر كان يعتمد عندهم عليها . وأن علماء العروض : (الخليل بن أحمد) و (الأخفش) لم يتمكنا من ضبط كل بحور الشعر التي كانت عند الجاهليين ، بدليل أننا نجد أبياتاً خارجة عن العروض الذي وضعاه،ويظهر أن هذا الخروج يمثل مرحلة من مراحل الشعر، لم نقف على كنهها بعد[3] . وقد وجد (العيني) أن في الأصمعية المرقمة بـ (٧٢) تشعيثاً ، قال عنه (غرونباوم) : « ومثل هذا لا يعدّ خطأ ، بل هو مظهر من مظاهر التطور الفني في هذا الوزن ، مظهراً استنكر أو نسي مع الزمن ، حين وضع علم العروض ، بعد حوالى قرنين من وفاة أبي دؤاد »[4] . وقد ذهب (غرونباوم) الى أن (الخليل) ، أقر « ستة عشر وزناً ، واطرح بعض الأوزان المزيلة التي كان القدماء قد استنبطوها »[5]، والواقع أننا لا نستطيع الزعم، بأن الخليل قد أحاط علماً بكل أنواع العروض العربي الجاهلي .

ومن يفحص الشعر الجاهلي ، يجد ان في بعضه اضطراباً وخروجاً وشذوذاً على قواعد (العروض) ، وقد وجد هذا الشذوذ في شعر شعراء يعدون من الفحول ، مثل (امرىء القيس) ، في القصيدة التي مطلعها :

عيناك دمعها سِجالُ كأن شأنيها أوشالُ

ومثل عبيد بن الأبرص في قوله :

أقفر من أهله ملحوبُ فالقطبيات فالذنوب

---

١ اللسان (٩/٨٠) ، بروكلمن (١/٥٣) .
٢ النهاية ، لابن الاثير (٣/٢٣٨) ، بروكلمن (١/٥٣) .
٣ بروكلمن (١/٥٤) .
٤ غرونباوم (٢٦٨) .
٥ غرونباوم (١٣٥) .

فقلما يخلو بيت من هذه القصيدة من حذف في بعض التفاعيل ، أو زيادة ، كما في الشطر الأول من هذا المطلع .

ومثل ما نسب الى المرقش الأكبر ، وعدي بن زيد العبادي ، وغيرهم ، من خروج على الوزن في بعض الشطور ، وإخلال في الوزن ، حتى زعم بعض العلماء ، ان في نونية (سلمى بن ربيعة) خروجاً عن العروض : عروض الخليل[1] . وقد أشرت في مكان آخر الى وقوع الإقواء والإكفاء والزحاف في شعر بعض الشعراء ، مثل امرىء القيس ، والنابغة ، وبشر بن أبي خازم ، وهي أمور تلفت النظر ، لا ندري أكانت قد وقعت من الشعراء حقاً ، أم من الرواية والرواة ، أم انها لم تكن عيباً بالنسبة لعروض الجاهليين ، وانما عدت من العيوب بالنسبة الى العروض الذي ضبط في الاسلام ، أو انه وقع بسبب تعديل أو تبديل أدخله العلماء على الأصل ، ليلائم قواعد العربية ، فوقع من ثم ما قيل له عيباً . وانني لا أستبعد وقوع السهو في نظم الشعر من شاعر مهما كان فحلاً ، فقد روي ان بعض الفحول من شعراء العصر الأموي كالكميت والفرزدق والأخطل ، قد وقعوا في أخطاء ، وان رواتهم كانوا يجرون تنقيحاً وتغييراً على أشعارهم ، ليقوّموا بذلك ما انحرف في شعرهم وما فيه من السناد[2] ، ولكن وقوع ما نشير اليه يدل على ان ما نعدّ اليوم عيباً أو خروجاً على القواعد والعروض ، لم يكن ينظر اليه هذه النظرة عند الجاهليين وفي صدر الاسلام ، وإلا دل ذلك على جهل أولئك الشعراء بقواعد اللغة وعلم الشعر ، وحاشا وقوع ذلك منهم ، وشعرهم نفسه كان في جملة المواد الأساسية التي استعان بها علماء القواعد والعروض في بناء النحو والعروض .

وقد قصر علماء الشعر فحولة الشعر في الجاهلية على الشعراء المعروفين بالنظم بالبحور المشهورة ، فيما عدا الرجز ، أما قالة الرجز ، فهم طبقة خاصة ، عرفت عندهم بالرجّاز . ويظهر من القول المنسوب الى (الوليد بن المغيرة) : « لقد عرفنا الشعر كله : رجزه ، وهزجه ، وقريضه ، ومقبوضه ، ومبسوطه »[3] ، أن الشعر في نظر أهل مكة : رجز ، أو هزج ، أو قريض ، أو مقبوض ، أو مبسوط ، وأن من يقول الرجز ، فهو راجز ورجّاز ، ولم يكن الرجز كما

---

١ العصر الجاهلي ، شوقي ضيف (١٨٤ وما بعدها) .
٢ الاغاني (٤/٢٥٦) .
٣ ابن هشام (١/١٧٣) ، (حاشية على الروض) .

يقول علماء الشعر طويل النفس ، وإنمـــا كان أبياتاً ، وقد بقي هذا حاله حتى أيام الأمويين ، فطول ولقي عناية خاصة عند كثير من الشعراء ، فأخذوا يذهبون به مذهب القصيد ، فقصدوه ، بأن جعلوه قصائد ، وعمدوا الى تخفيف ما تتركه بساطة العروض وسهولته في النفس من ملل،بأن لجأوا الى استعمال العبارات البعيدة المأخذ ، والألفاظ الغريبة ، والاختراعات اللطيفة ، حتى تمكنـوا من إدخاله الى قصور الخلفاء الأمويين ، ومن نيل الجوائز والألطاف منهم[1] .

ويعود الفضل في رفع مستوى الرجز في الإسلام ، الى رجلين من (بني عجل)، هما : (الأغلب بن عمرو) العجـــلي ، (٢١هـ) ، و (أبو النجم الفضل بن قدامة) العجلي ، والى رجال من (تميم) ، على رأسهم : (العجاج) (٩٧هـ) وابنه (رؤبة) المتوفى سنة (١٤٥ هـ) وقيل (١٤٧ هـ) ، و (عقبة) ابن (رؤبة) هذا ، و (أبو المرقال الزفيان)، و (دكين بن رجاء) الفقيمي ، و (محمد ابن ذؤيب) الفقيمي العماني[2] .

ولا نملك شعراً يمكن أن يقال عنه انه أقدم ما وصل الينا من مراحـل الشعر الجاهلي . حتى هذا الرجز ، الذي ينظر اليه المستشرقون على انه أول مرحلة من مراحل الشعر الجاهلي ، لبساطته ولسهولته ، ولكونه وسطاً بين السجع والشعر ، لا نملك نماذج منه ، يمكن أن نطمئن الى انها كانت من الشعر القديم ، الـــذي يصلح للاستشهاد به على انه من قديم الشعر ، إذ لم يحفـل علـــماء الشعر بالرجز لاعتبارهم اياه دون الشعر ، فلم يدونوا منه شيئاً يذكر ، ولذلك نجد نسبته بالنسبة الى كمية الشعر الآخر (التقليدي) نسبة ضئيلة جداً ، وهذا ما جعل علمنا بالرجز الجاهلي قليلاً جداً .

ولسهولة الرجز ، ولقابليته على الخروج على كل لسان ، أرى انه كان أكثر نظماً من الشعر المألوف ، ودليل ذلك اننا لو درسنا أخبار الأيام وأخبـار الغـزو والمعارك نجد للرجز فيها مكانة كبيرة ، فالمحارب الذي يقارع خصمه ويتجالد معه يرتجز رجزاً في الغالب لسهولته على اللسان ولمناسبته لمقارعـــة السيوف ، وللوقت القصير الذي يكون عنده ليقضي فيه المحارب على من يحاربه ، ثم ان في استطاعة

---

١ بروكلمن (١/٢٢٥) .
٢ بروكلمن (١/٢٢٨ وما بعدها) .

غير الشعراء الارتجاز ، وليس في استطاعتهم نظم الشعر ، لذلك كان الرجز أكثر كمية من الشعر ، ولكن كثرته هذه وسهولته ، قصرتا في عمره ، وربما صارتا من العوامل التي جعلت الناس لا تقدم على حفظه .

ولما كان الشعر تعبيراً عن عواطف جياشة وعن حس مرهف ، وعن نفس حساسة تريد التعبير عن نفسها بأي أسلوب كان ، فإن في استطاعتنا القول انه لازم البشرية منذ عرفت نفسها ، وأخذت تعبر عن احساسها بأية طريقة كانت : بطريقة بدائية أو بطريقة متطورة . فبدأ الشعر كما بدأ الانسان نفسه ، بداية بسيطة ساذجة بدائية ، ثم تطور بتطور مدارك الانسان ، وتعددت طرقه ومحوره ، بتطور العقل والمدارك ، وبارتفاع مستوى الحياة ، فكان لذة يلتذذ بها المسافر ، وهو يقطع الطرق الصعبة ، والصحارى الموحشة ، يعبر عنها بغناء ذي نغم ، وبألفاظ تناسب ذلك الغناء ، كما كان يعبر عنها في التشوق والتحبب الى الآلهة والقوى الطبيعية التي كان يرى انها تؤثر في حياته ، وفي مناسبات التقرب الى الملوك والحكام : لينال منهم لقمة عيش ، وشيئاً من مال ، كما عبر عنها في الأفراح وفي الأتراح. وفي الفخر والمدح والذم ، وهو الهجاء ، وفي الظروف التي تؤثر عليه ، فتجعله يفرح من رؤيتها ويرتاح ، مثل المناظر الطبيعية الجميلة ، والأصوات الجميلة وجمال الانسان .

والشعر الجاهلي الصحيح ، هو حاصل تطور طويل مستمر ، لا يمكن تحديد أوله ، إذ بدأ الشعر مذ بدأ الإنسان يشعر بالفرح وبالسرور وبالتعبير عن عواطفه. وقد فقد القديم منه بسبب عدم تدوينه في حينه ، وبسبب صعوبة بقائه في الذاكرة الى أمد طويل ، ولم يصل منه الينا إلا هذا القليل الذي قيل في عهد لا يرتقي كثيراً عن الإسلام ، وهذا القليل الباقي ، هو الصفحات القليلة الأخيرة من كتاب لا نستطيع أبداً تقدير حجمه ، هو كتاب الشعر الجاهلي ، الذي ختم بتغلب الإسلام على الشرك ، وبموت الجاهلية وظهور دين الله .

أما قول القائلين إنه لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حاجته ، وإنما قصدت القصائد في عهد مهلهل ، أو هاشم ، أو عبد المطلب، فرأي لا يقوم على دليل ، وليس له سناد تأريخي ، وإنما هو مجرد رواية رواها رواة الشعر في الإسلام . إذ لا يعقل أن تكون قريحة الجاهليين الذين عاشوا قبل

الإسلام بقرنين أو بقرن ونصف قرن ، قريحة محبوسة محصورة ، حددت بحدود لم تتعدها ولم تتخطها ، فإذا هاجت وماجت بالأحاسيس وبالشعور المرهف ، صاغت حسها هذا ببيت أو ببيتين أو ثلاثة ، ثم توقفت عند هذا الحدّ لا تتجاوزه أبداً . واذا كان الشعر طبع في الإنسان كما يقولون ونقول ، وهو نوع من أنواع التعبير عن الخاطر ، وجب تصور أن صياغته في قوالب من أبيات شعر ، إنما تكون صياغة منسجمة مع طول وعرض الخاطر صغيراً ، ضئيلاً ، صيغ ببيت أو بأبيات ، وإذا كان طويلاً مبعوثاً عن حس ملتهب جياش ، صيغ بأبيات تزيد عن تلك يتناسب عددها مع حجم ذلك الخاطر . فمن هنا لا نستطيع أن نقول إن شعر قدماء الجاهليين كان أبياتاً لا تزيد على ثلاثة ، وإنهم لم يكونوا يملكون القدرة على نظم ما يزيد على ذلك ، إلى أن جاء (عدي بن ربيعة) التغلبي ، الملقب بالمهلهل ، فوسع الشعر وزاد الأبيات وقصد القصائد . فقول مثل هذا وإن قال به علماء هم أعلم منّا بفنون الشعر وبدروبه ، قول لا يمكن الأخذ به لما ذكرته . أفلم يكن للذين سبقوا المهلهل من العرب لسان مثل لسانه وحس مثل حسه ؟ إذا كان لهم مثل ما كان له ، فيفترض أن يكون تعبيرهم عن عواطفهم ، مثل تعبيره عنها سواء بسواء ، قد يكون قليلاً وقد يكون كثيراً من غير تغيير أو تحديد ولا تقنين ، لأن التحديد يتوقف على طول وقصر الحس الذي يستولي على الشاعر فيصوغه شعراً .

أما اذا قصدوا من قولهم المذكور معنى ان المهلهل كان أول شاعر وصل شعره الينا أبياتاً زاد عددها على عدد ما وصل الينا من شعر أي شاعر تقدم عليه، وانه أول من رويت له كلمة بلغت ثلاثين بيتاً[1]، فذلك أمر آخر لا صلة له بدعواهم ان الشعر كان قبل المهلهل رجزاً وقطعاً ، فقصده مهلهل ، ثم امرؤ القيس من بعده . وظل الرجز على قصره بمقدار ما تمتح الدلاء ، أو يتنفس المنشد في الحداء حتى كان الأغلب العجلي، وهو على عهد النبي ، فطوّله شيئاً يسيراً وجعله كالقصيد[2].

وهذا معناه عندي ان شعر (المهلهل)، هو أول شعر طويل وصل الى علماء الأخبار من شعر قدماء الشعراء الجاهليين، وأما شعر من سبقه ، فقد فُقد وضاع معظمه،

---

١ الرافعي (٣/١٤) ، المزهر (٢/٤٧٧) .
٢ الرافعي (٣/١٥) .

obeikandl.com

وموجدوه ، أما (اليمن) ، فإنهم قد ساهموا فيه أيضاً ، حسب زعم أهل الأخبار والأنساب ، لكنهم لم يبلغوا فيه مبلغ ربيعة ومضر .

ويزعم أهل الأخبار ، ان من شعراء ربيعة : (المهلهل) ، والمرقشان ، وسعد بن مالك ، وطرفة بن العبد ، وعمرو بن قميئة ، والحارث بن حلـزة ، والمتلمس ، والأعشى ، والمسيب بن علس . وان من شعراء (قيس) النابغتان ، وزهير بن أبي سلمى ، وابنه كعب ، ولبيد ، والحطيئة ، والشماخ ، وأخوه مزرد . وان من شعراء (تميم) (أوس بن حجر) شاعر مضر في الجاهلية ، ولم يتقدمه أحد منهم ، حتى نشأ (النابغة) ، و (زهير) فأخملاه ، وبقي شاعر (تميم) في الجاهلية غير مدافع[1] .

ولا يمثل هذا التنقل المزعوم ترتيباً زمنياً ، بمعنى ان الشعر بدأ بربيعة أولاً ، ثم انتقل منها الى قيس ، ثم انتقل بعدها الى تميم ، إذ يتعارض ذلك مع ما يرويه أهل الأخبار وعلماء الشعر من تعاصر أكثر الشعراء ، ومن نبوغ معظمهم في وقت واحد ، وانما هو قول من أقوال أهل الأخبار المألوفة ، أصله رأي رجل واحد ، حمل عنه بالنص بذكر اسمه أحياناً ، وبدون ذكره أحيانـاً أخرى ، فلما تواتر في الكتب ، صار في حكم الإجماع ، يقال دون نقد ولا مناقشة الى هذا اليوم .

وما ذكرته عن تنقل الشعر يمثل رأي الرواة العدنانيين ، أما اليمانيـة ، فترى « تقدمة الشعر لليمن : في الجاهلية بامرىء القيس ، وفي الإسلام بحسان بن ثابت » . « وقال آخرون : بل رجع الشعر الى ربيعة فختم بهـا كما بدىء بها »[2] . وهو رأي يتعلق بالنسبة الى النسب الأكبر للقبائل ، وترى في الرأيين أثر العصبية للعدنانية أو لليمانية ، فقد صعب على القحطانية المناهضة للعدنانية ، الاعتراف بالتفوق عليها حتى في الشعر ، فزعمت أن الشعر بدأ بها ، وأنه كان من مكارمهـا القديمة ، وكل مكرمة إنمـا بدأت بقحطان ، وما عدنان إلا مستعربة أخذت عربيتها من (يعرب بن قحطان) ، وهي دون القحطانية في كل شيء .

وحكم مثل هذا لا يمكن إصداره بالطبع إلا بسند علمي ، وليس في يد أحد حتى يومنا هذا سند جاهلي ، يؤيد رأي هذا أو ذاك ، وقد لا يأتي يوم يمكن

---

١ ابن سلام ، طبقات (١٣) ، العمدة (١/٨٦) ، المزهر (٢/٤٧٦) .
٢ العمدة (١/٨٩) .

اعطاء رأي علمي فيه . أما ما ذكرته ، فهو نقل لآراء أهل الأخبار ، ورأينا في آرائهم في هذه الأمور معروف ، فنحن لا نأخذ آراءهم مأخذ الجدّ، ولا نثق بها ، وكلها في نظرنا حاصل عصبية ، وقد لعبت العاطفة القبلية دوراً خطيراً في ظهورها ، ونحن لا نستطيع تقديم ربيعة على مضر في الشعر ، ولا تقديم مضر على ربيعة فيه ، لعدم وجود دليل لدينا نتخذه سنداً ومستمسكاً في أيدينا لإثبات أي رأي من هذين الرأيين . أما أن يكون قد بدأ باليمن ، فالمسند ، يعارضه ويناقضه ، إلا إذا اعتبرنا اليمن ، القبائل الساكنة في الشمال ، أي خارج العربية الجنوبية ، والتي يرجع النسّابون نسبها عادة الى اليمن ، وهي قبائل كانت تتكلم بلهجات عربية شمالية ، فذلك أمر آخر ، وأمرها عندنا حينئذ مثل أمر ربيعة ومضر ، لا نستطيع تقديمها على ربيعة ولا على مضر ، ولا نستطيع تقديم ربيعة أو مضر ، للسبب المتقدم ، وهو عدم وجود أدلة لدينا تعيننا في الحكم بتقديم فريق على فريق ، واعطائه الأولوية في قول الشعر .

والشعر في نظرنا موهبة انسانية عامة ، لم تختص بقوم دون قوم ، ولا بأمة دون أمة ، وهي على هذه السجية بين العرب ، لم تختص بربيعة ، حتى نقول ان الشعر بدأ أول ما بدأ بها ، ولا بمضر حتى نقول انه ظهر أول ما ظهر عندها ولا باليمن ، حتى نقول انه بدأ بها وختم بها . وانما هو نتاج قرائح كل موهوب وذي حس شاعري من كل القبائل والعشائر . والشعر كما قلت مراراً شعور وتعبير عن عواطف تخالج النفس ، فكل انسان يكون عنده حس مرهف ، واستعداد طبيعي ، وذوق موسيقي ، يمكن أن يكون شاعراً من أي حي كان ، ولهذا كان الشعراء من قبائل مختلفة ، واذا تقدمت قبيلة على أخرى في كثرة عدد شعرائهم، فليس مردّ ذلك ان تلك القبيلة كانت ذات حس مرهف، واستعداد فطري لقول الشعر ، وان بقية القبائل كانت قبائل غبية بليدة الحس والعواطف، فلم ينبغ بينها مثل ذلك العدد من الشعراء ، فقد تكون هنالك أسباب أخرى نجهلها في هذا اليوم . جعلتنا نتصور انها كانت متخلفة في الشعر ، كأن تكون منازل تلك القبائل بعيدة منعزلة ، لم يتصل بها أحد من جمّاع الشعر ورواته . وهم بين كوفي وبصري ، فلم يصل شعرها اليهم ، فانقطع نتيجة لذلك عنّا ، أو ان تلك القبائل كانت قبائل صغيرة ، لم يكن لها شأن يذكر ، فانحصر شعرها في حدودها ولم يخرج عنها ، فخمل ذكره ، ولم ينتشر خبره بين القبائل الأخرى ، فلما ظهر

الاسلام ، كان قد خفى ومات .

ودليلنا اننا إذا دققنا في هذا الشعر الجاهلي الواصل الينا في الكتب، نجد انه شعر قبائل كبيرة ، لعبت في الغالب دوراً خطيراً في مجتمع ذلك اليوم ، مثل : كندة وبكر ، وأسد ، وتميم ، وتغلب ، ثم هو شعر شعراء كان لهـم اتصال وثيق بالعراق في الدرجة الأولى ، أي بملوك الحيرة ، الذين كان نفوذهم يشمل أرضين واسعة ، مثل البحرين ونجد واليمامة في بعض الأحيان ، فكان لقبائل هذه الأرضين اتصال بحكام الحيرة ، ولها مواقف معهم : حسنة أحياناً وسيئة أحياناً أخرى ، وفي مثل هذه المواقف ، يكون للشعراء دور خطير فيها ، فهم بين مادح ، أو ذام قادح ، أو رسول قوم جاء الى الملـوك في وفادة لفك أسير ، أو لإصلاح ذات بين ، أو جاء لنيل عطاء ، ونحن لا نكاد نجد شاعراً من الفحول أو من الشعراء المشهورين ، إلا وله صلة بملك أو أكثر من هؤلاء الملوك ، حتى لا يكاد يفلت منهم شاعر . أما ملوك الغساسنة ، فلهم بعد أولئك الملوك صلة بالشعراء ، بل هم دونهم اتصالاً بالشعراء ومرجع ذلك في نظري ان حكم الغساسنة لم يتجاوز بادية الشأم وحدود مملكة البيزنطيين ، فلم يكن لهم لذلك اتصال بقبائل الباديـة البعيدة عن منطقة نفوذهم ، ولا بقبائل الحجاز ونجد واليمامة والبحرين ، فتقلص مجال اتصالهم بالشعراء ، ولم يصل اليهم إلا الشعراء من أصحاب الحاجات، الذين كانوا يطوفون البلاد ، ويقصدون الموسرين الكرماء أينما كانوا لنيـل صلاتهم ثمناً لمدحهم لهم ، وإلا الشعراء الذين غضب ملوك الحيرة عليهم ، أو لم ينالوا منهم تحقيق مطمع وحل مشكل ، أو فك أسير ، فجاءوا لذلك الى الغساسنة خصومهم نكاية بهم ، وإلا بالشعراء الذين أغار قومهم على أرض الغساسنة ، فوقع نفر منهم في أسرهم ، فأرسلهم أهلهم وسطاء ورسلاً عنهم ، للتوسل اليهم بفك أسراهم .

ونحن لو ثبّتنا أسماء مواطن شعراء الجاهلية على صورة جزيرة العرب نرى أنها كانت في الحجاز ونجد واليمامة ، والبحرين والعراق . أما بلاد الشأم فقـد كانت فقيرة جداً بهم ، بل لا نكاد نجد فيها شاعراً لامع الاسم ، ترك أثراً في الشعر . ويلفت هذا الجدب في الشعر النظر اليه حقاً ، فقد عاشت ببلاد الشأم قبائل كبيرة كان لها شأن كبير في تلك البلاد قبل الاسلام وفي الإسلام ، مثل غسان، وبهراء، وكلب ، وقضاعة ، وتنوخ ، وتغلب ، وقبائل أخرى لعبت دوراً خطـيراً في الحروب مع عرب الحـيرة ، وفي مساعدة الروم ، كما لعبت دوراً خطيراً في

الفتوحات الإسلامية، فقد ساعدت الروم أولاً ، ثم انضمت الى المسلمين في قتالهم مع البيزنطيين ، وقبائل هذا شأنها لا يعقل الا يكون لها شعر وألاّ ينبغ من بينها شعراء لكثرة عددها ولمنافستها لعرب العراق ، ولكون لسانها هذا اللسان العربي الشمالي . فهل كان عند تلك القبائل شعراء ، لم يصل اسمهم الى علماء الشعر ، فلم يذكروهم لجهلهم بهم في عداد شعراء الجاهلية ؟ فصرنا لذلك لا نعرف من أمرهم شيئاً ! أو أنها كانت مجدبة حقاً لأنها كانت بمنأى عن الشعر والشعراء ، لتحضرها وتأثرها بالنصرانية وبثقافة بني إرم ، فلم تواتم تربتها الشعر ، لذلك أجدبت فيه ، ولم ينبت فيها شاعر لامع الاسم !

يقول علماء اللغة : « والذين عنهم نقلت العربية وبهم اقتدي ، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم : قيس ، وتميم ، وأسد ، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ، ثم هذيل ، وبعض كنانة ، وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم .

وبالجملة ، فإنه لم يؤخذ عن حضري قط ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ؛ فإنه لم يؤخذ من لخم ، ولا من جذام ، لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة وغسان ، وإياد ، لمجاورتهم أهل الشأم ، وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية ، ولا من تغلب[1] . فالقبائل المذكورة ، وإن كانت من القبائل العربية الكبيرة المرموقة ، إلا أن اقامتها ببلاد الشأم إقامة طويلة ومجاورتها أهل الشأم ، وتأثرها بلسانهم ، واعتناقها النصرانية ، وأخذها ديانتها بالسريانية التي سماها أهل الأخبار خطأ العبرانية ، وتحضرها وقرارها والتهائها بالزرع والرعي ، صيرت كل هذه الأمور وأمثالها لسانها عربياً مشوباً برطانة ، ولهذا عرفت بـ « العرب المستعربة » وبـ « مستعربة الشأم » ، عند المسلمين ، حتى صارت تلك الرطانة سبباً لإعراض علماء اللغة عن الاحتجاج بلغتها في شواهد القرآن والشعر على نحو ما رأيت .

وقد يكون لتلك القبائل شعر ، غير ان علماء اللغة قاطعوه للسبب المذكور ، ولكني لا أستطيع الجزم بذلك ، لعدم ورود إشارة الى هذه الناحية في كتب أولئك

---

١ المزهر (١/٢١١ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (١/١٥٤) .

العلماء ولا في كتب أهل الأخبار . ثم اني لاحظت ان أخبار فتوح الشأم لا تذكر شيئاً من شعر القبائل المستعربة التي حاربت مع الروم المسلمين ، أو التي حاربت مع المسلمين الروم،وحيث اننا نعرف ان من عادة العرب الاستعانة بالشعر والرجز أثناء غزوها وقتالها ، لذلك تلفت هذه الملاحظة الأنظار ، وتحمل المرء على البحث في سبب وجود هذا الفقر في شعر القتال في فتوح الشأم ، بينما نجد شعراً غزيراً وافراً أنتجته قرائح المتقاتلين في حروب العراق نظمه المحاربون المسلمون ، ومحاربو القبائل العراقية الوثنية والمتنصرة التي حاربت مع الفرس ، أو التي حاربت مع المسلمين أو تلك التي انضمت الى المسلمين فيما بعد .

وسبب هذا الفقر في نظري ، ان قبائل بلاد الشأم ، كانت قد تأثرت بلغة وبثقافة أهل الشأم ، وبالنصرانية المتأثرة بالسريانية وبالرومية وقد غلبت عليها نزعة الاستقرار ، فاستقرت في حواضر حضرية كبيرة مثل دمشق وحمص وحلب ، وقنسرين[1] ، وغيرها ، وهي حواضر معظم سكانها من السوريين والروم ، لا من العرب ، وكانت نصرانية ، صلواتها بالسريانية ، وثقافتها سريانية يونانية فتأثرت بثقافة من عاشت بينهم ، وانصرفت الى الزراعة ورعي الماشية ، وشابت لهجتها رطانة إرمية ، ولم تحفل بالشعر احتفال بقية العرب به . لذلك لم يظهر من بينها شاعر فحل .

أما عرب العراق ، فقد كانوا عرباً وأعراباً ، عربهم في قرى عربية،حكامها من العرب ورجال دينها نصارى ، ولكنهم نصارى عرب أو مستعربة ، علموا العربية في كنائسهم ، ونشروا الخط العربي في خارج العراق ، وتفقهوا في علوم العربية ، وفي جملة هذه العربية الشعر . وأما أعرابهم ، فقد كان قوم منهم نصارى والباقون على الشرك وعلى سمة الأعراب منذ وجدوا من الميل الى الاستقلال وعدم الخضوع لحكم أحد ، ومن الاعتزاز بالنفس والتعبير عن الأحاسيس المرهفة بقول الشعر ، وأما حكامهم ، وهم ملوك الحيرة ، فكانوا على سنة كبار سادات القبائل من استقبال الشعراء والإستماع الى إنشادهم ، وتلبية طلباتهم ، وكان من صالحهم اصطناع الشعراء لامتداد ملكهم الى نجد واليمامة أحياناً والى البحرين وهي من أهم مواطن الشعر في الجاهلية ، والشعراء أبواق الدعاية في ذلك العهد ، وقد

---

١ فتوح البلدان (١٥٠) .

كان ملوك الحيرة شعراء ، ينظمون الشعر ،ولهم اطلاع ووقوف على شعر الشعراء، وكان من اتصل بهم من سادة الحيرة شعراء كذلك ، لهم شعر مدوّن في كتب الأدب ، وفيه ما قالوه في فتوح المسلمين للعراق ، فمن هنا ظهر الشعر في العراق، على حين خمل في بلاد الشأم .

ولم تكن القبائل سواء في الشعر وفي عدد شعرائها ، وهـذا شيء طبيعي ، لا يختلف فيه اثنان . وقد لاحظ ذلك علماء الشعر ، فأشاروا الى أسماء قبائـل أنجبت في الشعر وأخصبت في الشعـراء ، وكان (الجاحظ) الكاتب الذكي ممن لاحظ ذلك ، فقال : « وبنو حنيفة مع كثرة عددهم ، وشدة بأسهم ، وكثرة وقائعهم ، وحسد العرب لهم على دارهم وتخومهم وسط أعدائهم ، حتى كأنهم وحدهم يعدلون بكراً كلها ، ومع ذلك لم نر قبيلة قط أقل شعراً منهم . وفي إخوتهم عجل قصيد ورجز ، وشعراء رجازون . وليس ذلك لمكان الخصب وانهم أهل مدر ، وأكالو تمر ، لأن الأوس والخزرج كذلك ، وهم في الشعر كما قد علمت . وكذلك عبد القيس النازلة قرى البحرين ، فقد تعرف ان طعامهم أطيب من طعام أهل اليمامة .

وثقيف أهل دارٍ ناهيك بها خصباً وطيباً ، وهم وإن كان شعرهم أقلّ ، فإن ذلك القليل يدل على طبعٍ في الشعر عجيب ، وليس ذلك من قبـل رداءة الغذاء ، ولا من قلة الخصب الشاغل والغنى عن الناس ، وانما ذلك عن قدر ما قسم الله لهم من الحظوظ والغرائز ، والبلاد والاعراق مكانها .

وبنو الحارث بن كعب قبيل شريف ، يجرون مجاري ملوك اليمن ، ومجاري سادات أعراب أهل نجد ، ولم يكن لهم في الجاهلية كبير حظ في الشعر . ولهم في الاسلام شعراء مغلقون .

وبنو بدر كانوا مفحمين ، وكان ما أطلق الله به ألسنة العرب خيراً لهم من تصيير الشعر في أنفسهم .

وقد يحظى بالشعر ناس ويخرج آخرون ، وإن كانوا مثلهـم أو فوقهم . ولم تمدح قبيلة في الجاهلية ، من قريش ، كما مُدحت مخزوم ، ولم يتهيأ من الشاهد والمثل لمادحٍ في أحد من العرب ، ما تهيأ لبني بدر .

وقد كان في ولد زرارة لصلبه ، شعر كثير ، كشعر لقيط وحاجب وغيرهما

من ولده . ولم يكن لحذيفة ولا لحصن ، ولا عيينة بن حصن ، ولا لحمل بن بدر شعر مذكور[1] .

وقال (يونس بن حبيب) الضبيّ ، « ليس في بني أسد إلا خطيب أو شاعر ، أو قائف ، أو زاجر ، أو كاهن ، أو فارس ، وليس في هذيل إلا شاعر أو رام أو شديد العدو »[2] . وذكر (الجاحظ) أن (عبد القيس) بعد محاربة (إياد) تفرقوا فرقتين ، ففرقة وقعت بعمان وشق عمان ، وفيهم خطباء العرب ، وفرقة وقعت الى البحرين وشق البحرين ، وهم من أشعر قبيلة في العرب . ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرة البادية وفي عدن القصاحة[3] ؛ ولابن سلام رأي في هذا الموضوع إذ يقول : « وبالطائف شعر وليس بالكثير ، وإنما يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء . والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا ، وذلك الذي قلل شعر عمان »[4] .

وجاء أن أفصح الشعراء ألسناً وأعربهم أهل السروات ، وهن ثلاث ، وهي الجبال المطلة على تهامة مما يلي اليمن ، فأولها هذيل ، وهي تلي السهل من تهامة ، ثم بجيلة السراة الوسطى ، وقد شركتهم ثقيف في ناحية منها ، ثم سراة الأزد ، أزد شنوءة ، وهم بنو الحارث بن كعب بن الحارث بن نضر بن الأزد[5] . وذكر أن قبيلة (هذيل) هي في طليعة القبائل عدداً في الشعراء ، فقد روى العلماء لأربعين شاعراً منهم في الجاهلية والإسلام ، وهو عدد قياسي بالنسبة الى عدد الشعراء الذين أنجبتهم القبائل الأخرى[6] ، وقيل عنها إنها أعرقت في الشعر[7] . وروي أن سائلاً سأل (حسان بن ثابت) : « من أشعر العرب ؟ فقال : أراحلاً أم حياً ؟ قيل : بل حياً ؛ قال : أشعر الناس حياً هذيل »[8] . وكان (الشافعي) يحفظ

---

١ الحيوان (٣٨١/٤ وما بعدها) .
٢ الرافعي (٢٠/٣) .
٣ الرافعي (١٩/٣) .
٤ ابن سلام (٢١٧) .
٥ الرافعي (١٨/٣) ، المزهر (٤٨٣/٢) .
٦ الرافعي (١٩/٣) .
٧ تاج العروس (١٦٦/٨) ، (هذل) .
٨ المزهر (٤٨٣/٢) .

عشرة آلاف بيت من شعر هذيل بإعرابها وغريبها ومعانيها »[1] . وقد عدّت (هذيل) أشعر القبائل في رأي بعض العلماء[2] .

وذكر الأخباريون ان العرب كانت تقر لقريش بالتقدم في كل شيء إلا في الشعر ، فإنها كانت لا تقر لها به ، حتى كان عمر بن أبي ربيعة ، فأقرت له الشعراء بالشعر أيضاً ولم تنازعها[3] . وقالوا : إن قريشاً كانت أقل العرب شعراً في الجاهلية ، فاضطرها ذلك أن تكون أكثر العرب انتحالاً للشعر في الاسلام[4] .

وروي عن (معاوية) انه كان يقول : فضل المُزَنِيّون الشعراء في الجاهلية والاسلام . وكان يقول : أشعر أهل الجاهلية زهير بن أبي سلمى ، وأشعر أهل الاسلام ابنه كعب ، و (معن بن أوس) . و (معن) شاعر مجيد من مخضرمي الجاهلية والاسلام[5] .

فبعض العرب مخصبين في الشعر ، وبعضهم أقل خصباً ، وقد رجع (الجاحظ) سبب ذلك الى الموهبة والطبع ، فكما ان النبوغ يتفاوت بين انسان وانسان ، كذلك يتفاوت الشعر بين قبيلة وقبيلة ، ورجع (ابن سلام) ذلك الى عامل البداوة ، والحضارة ، فالأعراب متشاجرون مكثرون من الغارات يغزو بعضهم بعضاً ، والشعر يكثر بالحروب التي تكون بين الأحياء ، أما الحضر ، فإنهم لا يميلون الى الحروب والمعارك ، ولذلك يقلّ شعرهم على رأيه . ولهذا السبب قلّ شعر قريش ، لأنه لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا . فالحرب تهيج العواطف ، وتحمل الناس على التحمس لها والدفاع عن أنفسهم وتكديس كل القوى للتغلب على العدو ، والشعر من أهم وسائل تسعير نار الحرب .

وقد أشار أهل الأخبار الى بيوت ذكروا أنها اشتهرت بقول الشعر ، وبظهور المعرقين فيها . وضربوا أمثلة عليها ببيت (أبي سلمى) . فقد كان شاعراً واسمه ربيعة ، وابنه زهير بن أبي سلمى ، وله خؤولة في الشعر : خاله بشامة بن الغدير ، وكان كعب وبجير ابنا زهير شاعرين ، وجماعة من أبنائها .

---

١ المزهر (١/١٦٠) .
٢ بلوغ الارب (٣/١٤٠) .
٣ الاغاني (١/٣٥) .
٤ طبقات الشعراء (١٠) .
٥ الاصابة (٣/٤٧٥) ، (رقم ٨٤٥٢) .

وضربوا المثل ببيت (حسان بن ثابت) ، فقد كان أبوه وجده وأبو جده شعراء ، وابنه عبد الرحمن شاعر ، وسعيد بن عبد الرحمن شاعر .

ومن البيوتات التي عرفت بالشعر : بيت (نهشل بن حرّي بن ضمرة بن جابر بن قطن) ، ستة ليس يتوالى في بني تميم مثلهم شعراً ، وكذلك بيت (النعمان بن بشير) ، وكانت أمه (عمرة بنت رواحة) شاعرة ، وخاله (عبدالله ابن رواحة) أحد شعراء الرسول[1] .

ومن بيوتات الشعر المعرقة في الجاهلية والإسلام ، (آل الحارثي) ، منهم (عبد يغوث بن الحارث بن وقاص) الحارثي . وكان شاعراً من شعراء الجاهلية، فارساً سيّد قومه من (بني الحارث بن كعب) ، وهو الذي كان قائدهم يوم (الكلاب) الثاني فأسرته (تيم) وقتلته . ومنهم (اللجّلاج) الحارثي ، وهو طفيل بن زيد بن عبد يغوث ، وأخوه (مُسهر) فارس شاعر ، وهو الذي طعن (عامر بن الطفيل) في عينه يوم (فيف الريح) . ومنهم ممن أدرك الإسلام (جعفر بن عُلْبة بن ربيعة بن الحارث بن عبد يغوث) وكان شاعراً صعلوكاً ، أخذ في دمٍ فحبس في المدينة ثم قتل صبراً[2] .

وقد تعرض (جرجي زيدان) لموضوع تنقل الشعر في الأقاليم ، فقال : « واذا أحصيت شعراء الجاهلية الذين بلغنا خبرهم بالنظر الى المواطن ، رأيت نحو خمسيهم من نجد ، والخمس الثالث من الحجاز ، والرابع من اليمن والباقي من العراق ، وفئة قليلة من البحرين واليمامة وتهامة »[3] ، وذلك على اعتبار ان القبائل: (كندة) ، و (أسد) ، و (مزينة) ، و (عبس) ، و (سلم) ، و (عامر) ، و (طيء) ، و (جشم) ، و (ضبيعة) ، و (سعد) ، و (ضبة) ، و (جعدة) ، و (باهلة) ، و (تميم) ، و (عكل) ، و (بكر) ، و (مرة) ، و (نبهان) ، من قبائل نجد ، وان (ذبيان) ، و (هذيل) ، و (الأوس) ، و (الأزد) من الحجاز ، وان (يشكر)، و (تغلب) ، و (العباد) ، و (تميم) ، و (بكر) ، و (إياد) ،

---

١ العمدة (٢/٣٠٦) .
٢ الخزانة (٢/٢٠٢ وما بعدها) .
٣ تأريخ آداب اللغة العربية (١/٧٤) .

من العراق ، وان (بكراً) ، و (ضبعاً) ، من البحرين ، وان (بني ثعلبة) من اليمامة ، وان (فهماً) ، و (مزينة) من تهامة[1] . وهو تقييم لا يمكن الأخذ به في هذا اليوم ، وفيه أخطاء ، وقد بني على روايات لأهل الأخبار ، تعارضها روايات أخرى لهم ، لم يقابلها أو يطابق بعضها ببعض ، فوقع لذلك في أوهام .

ونلاحظ أنه سار على رواية أهل الأخبار في تنقل الشعر في القبائل ، فجعل (ربيعة) أول من نبغ في الشعر ، ثم حوله إلى قيس فتميم . ثم ظهر الشعر بعد ذلك على رأيه في بطون مدركة من مضر ، وهي : هذيل ، وقريش ، وأسد ، وكنانة ، والدئل وغيرهم . وكلهم من أهل البادية ، أما أهل المدن ، فقلما نبغ بينهم شاعر فحل ، وأشعرهم (حسان بن ثابت)[2] .

ومن أهم قبائل ربيعة وبطونها : بكر ، وتغلب ، وعبد القيس ، والنمر بن قاسط ، ويشكر ، وعجل ، و (جشم) ، وحنيفة ، وقيس بن ثعلبة،وضبيعة، وشيبان ، وذهل ، وسدوس . ومن أشهر شعراء هذه المجموعة المرقشان الأكبر والأصغر ، وطرفة بن العبد ، وعمرو بن قميئة ، والحارث بن حلزة ، والمتلمس، خال طرفة ، والأعشى ، والمسيب بن علس وآخرون . وقد جعل (زيدان) عددهم (٢١) شاعراً[3] .

وقد نزل بنو قيس بن ثعلبة وبنو حنيفة اليمامة . ومن بطون قيس بن ثعلبة : سعد بن ضبيعة ، رهط الأعشى ، ومن ديارهم (منفوحة) . وكانوا بين الحياة الحضرية والحياة الأعرابية ، يرعون الإبل والغنم ، إلا أنهم أصحاب نخيل . أما حنيفة ، فكانت تزرع وترعى ، وقريتهم الكبرى (حجر) ، وكانوا يزرعون الحبوب ، ويمونون الأعراب ومكة بها . وكانت النصرانية قد وجدت سبيلها بينهم ، وقد افتخر (الأعشى) بقومه على (إياد) ، لأنهم أصحاب مال ، أما (إياد) ، فأصحاب زرع ينتظرون حصاد حبهم ، وذلك في هجائه لهم بقوله :

---

١ راجع (الصفحة ٨٠ فما بعدها الى انتهاء ٨٤) من الجزء الاول .
٢ تأريخ آداب اللغة العربية (١/٧٤ وما بعدها) .
٣ العمدة (١/٨٦ وما بعدها) ، تأريخ آداب اللغة العربية (١/٧٤ وما بعدها) ، (تنقل الشعر في القبائل) .

لسنا كمن جعلت إيادٌ دارها تكريت تنظر حبّها أن يُحصدا
جعل الإلـٰه طعامنا في مالنا رزقاً تضمنه لنا أن ينفدا
مثلَ الهضاب جزارة لسوفنا فإذا تُراع فإنها لن تطردا
ضمنت لنا أعجازهن قدورنا وضروعهن لنا الصريح الأجردا [1]

وقيس قبيلة كبيرة من بطونها : عبس ، وذبيان ، وغطفان ، وعدوان ، وهوازن ، وسليم ، وثقيف ، وعامر بن صعصعة ، ونمير ، وجعدة ، وقشير ، وعقيل . وكانت هذه القبائل في نجد وأعالي الحجاز ، وقد نبغ فيها جماعة من فحول الشعراء ، منهم النابغتان ، وزهير بن أبي سلمى ، وكعب بن زهير ابنه ، ولبيد ، والحطيئة ، والشماخ ، وأخوه (مزرد) ، وخداش بن زهير ، وعنترة العبسي وغيرهم . وعندهم ان أشعر قيس الملقبون من بني عامر والمنسوبون الى أمهاتهم من غطفان [2] . وقد جعل (زيدان) عدد شعراء قيس (٣٠) شاعراً . وقال : « اذا اعتبرت عدد شعراء الجاهلية بالنظر الى القبائل، كانت قيس أكثرها شعراء ، تليها اليمن فربيعة ، فمضر فقريش فقضاعة فإياد » [3] .

وأما (تميم) ، فقبائل كثيرة من مضر ، أشهرها : مازن ، ومالك ، وسعد ، ودارم ، وبهدلة ، ويربوع ، وكعب ، ومجاشع ، وزرارة . وكانت منازلها في القديم تهامة ، ثم نزحت الى مواضع أخرى من جزيرة العرب ، فسكن بعض منها في اليمامة ، وبعض في العربية الشرقية ، وقسم بنجد ، ونزح قوم منهم الى العراق ، وأقاموا في البادية . وقد لعبت تميم شأن القبائل الكبيرة دوراً خطيراً في أحداث الجاهلية القريبة من الاسلام . ومن شعرائها : أوس بن حجر [4] . وجعل (زيدان) عدد شعرائها (١٢) شاعراً [5] . ولكنك لو سجلت أسماء الشعراء الذين وردت أسماؤهم في كتب الأدب والتأريخ ، لوجدت ان عدد شعراء تميم

---

١ ديوان الاعشى ، القصيدة رقم ٣٤ ، العصر الجاهلي (٣٣٤) .
٢ الاغاني (٩٢/٢) ، زيدان ، تأريخ آداب اللغة العربية (٧٥/١) ، العمدة (٨٨/١) .
٣ تأريخ آداب اللغة العربية (٧٥/١) .
٤ العمدة (٨٨/١) .
٥ تأريخ آداب اللغة العربية (٧٥/١) .

يزيد على العدد المذكور بكثير . فتميم من القبائل المخصبة بالنثر وبالنظم. ولكلامها رأي ومقام عند علماء اللغة .

ومن مضر أيضاً : هذيل ، وأسد ، وكنانة ، وقريش ، والدئل . وهذيل من القبائل الساكنة في هضاب وجبال غير بعيدة عن مكة ، وقد عدّ لسانها من الألسنة العربية الجيدة ، واشتهرت بكثرة شعرها وبجودته ، وقد جمع في دواوين، وعني العلماء بجمعه وبشرحه ، وبقيت منه بقية طبعت[1] .

وأما القبائل التي يرجع النسابون نسبها الى اليمن ، فهي : كندة ، وطيء ، والأشعر ، وجذام ، والأزد ، ولخم ، ومذحج ، وخزاعة ، وهمدان ، وغسان والأوس والخزرج[2] . ولبعض منها شعر وشعراء وردت أسماؤهم في ثنايا هـذا الكتاب .

أما ميزات لغاتهم وخصائص نحوهم وصرفهم ، فلا نعرف عنها غير قليل . لعدم تطرق علماء اللغة الى هـذه المميزات ، خلا ما ذكروه من أمور اختلفت فيها (طيء) عن غيرها في مثل (ذي) الطائية ، وغير ما ذكروه من تفردهم في تفسير معاني بعض الألفاظ ، مثل (التخوف) بمعنى التنقّص في لغـة أزد شنوءة[3] .

ولدراسة شعر هذه القبائل ، دراسة لغوية مقارنة ، أهمية كبيرة بالنسبة للباحث في لغـة العرب ، إذ يستطيع بها من الوقوف على مزاياها ومفارقاتها بالنسبة الى العربية المعهودة ، ومن الوقوف على الروابط اللغوية التي تجمع بين هـذه اللغات التي يرجع أهل الأنساب والأخبار أصل المتكلمين بها الى اليمن .

وأما مجموعة قضاعة ، فجهينة ، وضجعم ، وتنوخ ، وكلب[4]. وهي مجموعة لم تنجب عدداً كبيراً من الشعراء ، ولم يحفل علماء اللغة بلغتها ، إذ لا نجد للهجتها ذكراً خطيراً في كتب اللغة ، فلم يشيروا اليها في جملة القبائل التي ركنوا الى الأخذ بلسانها للاستشهاد به في شواهد اللغة والنحو والصرف. ويظهر ان احتكاكها

---

١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/٨٢ وما بعدها ، ١٠٤) .
٢ تأريخ آداب اللغة العربية (١/٧٦) .
٣ تفسير الطبري (١٤/٧٧) ، (بولاق) .
٤ تأريخ آداب اللغة العربية (١/٧٦) .

بالنبط وبالآراميين وأمثالهم ، قد عرض لسانها الى الأخذ من ألسنتهم والى التأثر بهم ، حتى بان ذلك عليه ، وهذا ما حمل علماء اللغة على عدم الاستشهاد به في جملة الشواهد . وأنا لا أستبعد احتمال وجود خصائص به ، ميّزته عن العربية القرآنية ، بدليل ان أعراب الصفا (الصفاة) ، وهم من أعراب بلاد الشأم ، كانوا يتكلمون ويكتبون بعربية مباينة لعربيتنا ، وقد تكلمت عن عربيتهم في الجزء السابع من كتابي القديم : تأريخ العرب قبل الاسلام ، وأرض الصفا هي من مواطن تلك المجموعة .

وذهب (جرجي زيدان) ، كما سبق أن قلت ، الى أن قيساً أكثر القبائل عدداً في شعرائها ، تليها اليمن ، فربيعة ، فمضر ، فقريش ، فإياد . وقدر عدد شعراء الجاهلية الذين وصلتنا أخبارهم بـ (١٢٥) شاعراً ، وزّعهم على هذا النحو : ثلاثين شاعراً في قيس ، وثلاثة وعشرين شاعراً في اليمن ، وواحداً وعشرين شاعراً في ربيعة ، وستة عشر شاعراً في مضر ، واثني عشر شاعراً في تميم ، وعشرة شعراء في قريش ، وأربعة شعراء في قضاعة ، وشاعرين في إياد، وشاعر واحد من أصل غير عربي ، أي مولى[1] .

وقد سمى (أبو الفرج) لمضر سبعة وستين شاعراً ، ولليمن أربعين ، ولربيعة ثلاثة عشر : وسمّى شعراء آخرين ، منهم من يتصل بجديس ، ومنهم من يتصل بجرهم[2] .

نرى مما تقدم أن الشعراء كانوا من مضر ، ومن ربيعة ، وهما من عدنان ، كما كانوا في القبائل القحطانية . ويذكر أهل الأخبار أن حظ القبائل المضرية من الشعر ، كان أحسن حالاً من حظ ربيعة وقحطان ، وأن حظ قبائل كل مجموعة من هذه المجاميع الثلاث كان متفاوتاً ، فبينها المكثر ، وبينها المقل . ولا نستطيع إرجاع سبب تفوق القبائل المضرية على قبائل ربيعة أو قحطان الى اللغة ، لأننا لا نملك حتى الآن صورة واضحة علمية عن أصل اللغة العربية التي نظم بها الشعر والتي نزل بها القرآن ، حتى نستطيع البت بموجبها في موضوع هذا التفوق . وإذا جارينا أهل الأنساب في تقسيمهم العرب الى عدنانيين وقحطانيين ، جاز لنا حينئذ

---

١ تأريخ آداب اللغة العربية (١/٧٥) .
٢ طه حسين ، في الادب الجاهلي (٢٥٦) .

القول ، بأن شعر القبائل القحطانية قد قلّ عن شعر عدنان من مضر وربيعة ، بسبب استعراب هذه القبائل ، أي أخذها لغة العدنانيين لغة لها ، وتركها لغتها الأصلية لغة أهل اليمن ، بسبب اتصالها بالقبائل العدنانية ، فمن ثم قـلّ شعرها بسبب هذا الاستعراب . ولكن ماذا يكون جوابنا عن تخلف ربيعة في الشعر عن مضر ، وربيعة أخت مضر ، في عرف النسابين ، ولغتها مثل لغة مضر ؟

والذي أراه ، ان البت في مثل هذه المشكلات ، هو أمر لا يمكن أن يكون علمياً في الوقت الحاضر ، فقـد رأيت ان الأنساب حاصل تكتـلات سياسية ، وتجمعات قبلية ، وانها لم تكن حاصل نسب بالمعنى المفهوم من لفظة (نسب) ، بمعنى الانحدار من صلب والدَيْن ، ورأيت ان العرب كانوا يتكلمون قبل الاسلام بلهجات متباينة ، حصرناها في مجموعات استنبطناها من الكتابات الجاهلية ، ولكننا لا نستطيع أن نقول انها تشمل كل لهجات العرب ، فقد عثر حديثاً على كتابات جديدة لم تدرس بعد دراسة علمية كافية حتى نقول رأينا فيها ، وقـد يعثر في المستقبل على كتابات أخرى ، قد تزيد في عدد ما نعرفه من المجموعات اللغوية العربية الجاهلية . وفي ظروف كهذه يكون من الصعب علينا الموافقة على ما يذهب اليه أهل الأخبار وما يذهب اليه التابعون لهم من المحدثين من تنقل الشعر في القبائل ومن توزع الشعراء بين مضر وربيعة وقحطان . والرأي عندي ان من الواجب علينا في الوقت الحاضر لزوم اجراء مسح علمي دقيق للهجات العرب في جزيرة العرب ، بالبحث في كل مكان عن الكتابات الجاهلية وعن كتابات صدر الاسلام ، وبدراسة كل ما كتبه علماء اللغة عن اللغات العربية في الكتب المعروفة وفي الكتب التي قد تكون مؤلفة بلهجات أهل العربية الجنوبية أو غيرها في الاسلام ، وبدراسة اللهجات الباقية ، ولا سيما اللهجـات المنعزلة المتميزة بمميزات خاصة ، واستنباط مزاياها وعلاقتها باللهجات القديمة ، ثم غربلة كل هذه الدراسات لاستخلاص المجاميـع اللغوية منها ، وتحديد المواضع التي كانت تتكلم بهذه المجموعات ، وبذلك نستطيع تكوين رأي عن لغـة الشعر ، وعن القبائل التي كانت تتكلم بها ، وصارت لهجتها لهجة الشعر عند ظهور الاسلام .

وأغلب شعراء الجاهلية من أهل الوبر ، أما شعراء أهل المدر فأقل منهم عدداً . ولم يظهر بين شعراء أهل المدر شاعر رفعه علماء الشعر وعشاق الشعر الجاهلي الى

مرتبة الشعراء الفحول من رجال الطبقة الأولى[1] من طبقات الشعراء الجاهليين. وهم يقدمون شعراء البادية على شعراء الأرياف ، ولا سيما شعراء الريف المتصل بالنبط والأعاجم . ولهذه النظرة التي تحمل طابع الغمز في صحة ألسنة عرب الأرياف ، تحفظ أكثر علماء العربية في موضوع جواز الاستشهاد بشعر شعراء الحيرة مثلاً ، لاتصال أهلها بالنبط ولاختلاطهم بالأعاجم .

---

١ زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١/٧٥) .

obeikandl.com